حركات الإصلاح الإسلامية

٤ ـ أزمة إســـلامية

للدكتور على حسن عبد القادر

أما حركة التجديد الإسلامية بمصر فقد صدرت عن عوامل وأسباب أخرى غير التى ذكرناها عن حركة الهند ، وإن كانت قد سلكت نفس الطريق ، وجاءت بنتائج متشابهة . ونحن لا نستطيع أن نجزم بأن الحركة الهندية كان لها أثر فى حركة الإصلاح المصرية . وإذا ما تصفحنا ما كتبوه من رسائل وكتب فإنا لا نجد بينهما أى ارتباط . ويظهر لنا واضحاً ما بينهما من فرق إذا عرفنا أن الروح التى سادت الحركة الهندية كانت « روحاً ثقافية » جاءت من التفكير والنظر الذى كان نتيجة اتصال الإسلام بالحضارة الأوربية ، وجهودهم الإصلاحية كانت تحت تأثير أوربى ، أما الناحية الدينية عندهم فكانت أمراً ثانوياً . والحركة المصرية كانت ، على الضد من هذا ، حركة دينية نتيجة تفكير ونظر دينى ، وسلكت طريق الإصلاح مستقلة عن أى نفوذ أجنبى ، فهى عند ما ترفض أعمالاً أو بدعاً لا تردها على أساس أنهـا « معادية للتمدن والحضارة » بل لأنها « معادية للاسلام » مخالفة للقرآن والسنة الصحيحة ، كما أن البدع القائمة على الحديث كانت ترد على أساس من علوم النقد الإسلامى فى الجرح والتعديل . وهى تهتم من ناحية أخرى بخلقية الإنسان كمسلم وكشرقى ، وتكره التقليد الأعمى الأوربيين ، وتحذر من أضراره، حريصة جد الحرص على « الخلقية العربية الإسلامية »

وهنا فى مصر حيث يقوم منذ قرون الجامع الأزهر ، هذا المركز العالمى العظيم للعلوم الإسلامية ، والذى كان يسير على طريقة قديمة جامدة ، ترتبط حركة الإصلاح باسم الإمام محمد عبده تلميذ جمال الدين الأفغانى المتلىء به إعجاباً (١)

وقد كان محمد عبده من طلاب الأزهر ومن علماء الدين ، ثم صادفته أزمات داخلية طويلة حتى عرف جمال الدين أثناء مقامه بمصر فرسم له الطريق الذى سار عليه فيما بعد ، وسلكه وسط زعازع ومنازعات داخلية وخارجية انتهت به — مع الارتباط بالحركة العرابية — إلى النفى من مصر . وبعد ذلك وصل إلى مركز الإفتاء ونال اعترافاً عاماً ونفوذاً كبيراً ، وكان ولا يزال موضع عداوة قاسية من طبقة المتزمتين الجامدين

وإنه وإن كان فيما انتهى إليه قد صبغ الإصلاح بمصر بلون خاص ـ مع العلم بأنه كان ضد النفوذ الغربى ـ فإن الاسم الذى أطلقه عليه جولدزيهر بأنه « ذو ثقافة وهابية » أقرب الأسماء إليه وأولاها به . فمن الحق أن نقرر أن هذا العامل هو الذى يفسر لنا إصلاحات محمد عبده الدينية التى لا ارتباط بينهـا وبين الحركة الهندية . وأن ما أسماه جولدزيهر « ثقافة وهابية ليس معناه أن هذه الخطة قد جاءته مباشرة من الوهابيين ، وإنما غرضه التفريق بين حركة الثقافة فى الهند والحركة المصرية التى تسودها العوامل الدينية وترفض مالا يقره الدين، الأمر الذى لا شك فى كونه أثراً جاء من العربية الخالصة

---

(١) راجع على الأخص من الحركة المصرية : Goldziher, Die Richtungen dès islamischen Koranausiegung, S. 320 ff.

وراجع أيضا عن حياة محمد عبده وأعماله مقدمة : Mohammed Abdou, Rissalat al Tawhid, Exposé de la religion musulmane, trad. par B. Michel et Mostafa Abdel Razik (Paris 1925)

وأين مواعيد الصبابة والوجد فى ساحاتك الفيحاء ؟

وأين استقبال الغاديات والرائحات فى الضحى والأصيل حول مخازن السماريتين ؟

وأين صبح الأحد فى متحف اللوفر وعصر الأحد فى حديقة النبات ؟

وأين الصوت ! On ferme ليرجع العشاق إلى مخادعهم بعد العبث بأزهار البساتين ؟

وأين ؟ وأين ؟ وأين ؟

هى دنيا تذوقين من بأسائها بعض ما ذقتُ بعد فراقك الأليم

فيا مرجع روحى بعد القاهرة وبغداد وسنتريس ، ويا صاحبة الفضل على أكثر ما نظمتُ من قصائد وما نشرتُ من مؤلفات ، ويا وطن الجنرال بونال الذى كانت داره ملاذ عزيمتى ، ويا وطن الكوليج دى فرانس ومدرسة اللغات الشرقية والسوربون ، ويا وطن الصديق الحميم دى كومنين أقدم إليك أصدق التحيات وأنا واثق بنصيبك الأعظم من الخلود

زكى مبارك

وكان لسان حال مدرسة الإمام محمد عبده مجلة المنار التى يحررها رشيد رضا السورى التى أخذت تنازع فى الإجماع المنعقد على المذاهب وتقليدها وتطالب بالاجتهاد على أساس القرآن والسنة . فقد رأت هذه المدرسة، مثل مدرسة الهند، أن الإسلام دين عالمى موافق لكل الشعوب وكل العصور، متفق مع الحضارة، ولكن على شرط ألا يأخذ بمذهب واحد من المذاهب ، بل يجب الرجوع إلى القرآن والسنة الصحيحة ، فهى ترى مثل الإمام الغزالى الذى صرح بهذه الفكرة منذ ثمانية قرون أن المفتاح لشرح الحالة التى طغت على الإسلام ، إنما هو فى جمود المذاهب الأربعة وانحصار العلم فيها وحدها ؛ تلك المذاهب المتخالفة ، وما فيها من تكرر عتيق ، ومماحكات غير نافعة ، وما تلاها من فقه المتأخرين ، ليست هى الإسلام والدين ، وإنما ذلك فى القرآن والسنة . وأغلب ما فى هذه المذاهب إنما يقوم على الاشتغال بفروع جزئية تتغير بتغير البلاد والأوقات وتخضع للتغيير تبعاً للعلاقات الاجتماعية ، ومثل هذا لا يصح أن يسلك به فى سلك دينى ثابت لكل زمن غير قابل للأخذ والرد . وكان من أثر هذه المذاهب الاختلافات التى حدثت فى الإسلام مما وقف ازدهاره . وهكذا رفضت هذه المدرسة أساس المذاهب الفقهية القائم على (اختلاف أمتى رحمة) ؛ وقالت : إن الأمر بالعكس . وطعنت فى صحة هذا الحديث الذى يخالف آيات كثيرة من القرآن. وقالت أيضاً: إن الوحدة والمرونة إنما تكون بالرجوع إلى القرآن والسنة وحدهما حيث توافق الشريعة الحياة فى كل وقت وكل حال ، وبهذا يمكن الرجوع بالإسلام إلى حالة القوة والشباب[1]

كما رأت هذه المدرسة أن باب الاجتهاد لم يقفل بل إنه مفتوح على مصراعيه لبحث كل المسائل الطارئة . وليس الحكم فيها خاضعاً لحرفية النصوص ، بل يجب اعتبار مصلحة العالم الإسلامى أولاً وقبل كل شىء « وليس الشرع محصوراً فى جلود كتب الحنفية » . فإذا ما قام الفقه على هذين الأساسين : الاجتهاد والمصلحة ؛ فإنه يكون صالحاً لكل زمان ومكان ، وقابلاً لما تقضى به الضرورة من أمور تدعو إليها المصلحة وموافقة العصر . وحينئذ يمكن الرد على الذين يزعمون أن الفقه الإسلامى إنما هو لزمن خاص ومكان خاص ، وليس عاماً لكل الشعوب وفى كل الأوقات

ونظراً لأن الإمام محمد عبده كانت له شخصية دينية عميقة لأنه كان من مدرسة صوفية ، فإن الإصلاح الإسلامى بمصر كان — مخالفاً فى هذا الحركة الهندية — يمتاز بأساس من الإيمان والمحافظة وبروح حارة من التقوى . ولما كان يسود الاعتقاد بسمو الوحى ورفعته ، جاء الاقتناع القوى بأن العلم والدين عند الفهم الصحيح أخوان لا يختلفان ، وعلى هذا الأساس لم يرفض محمد عبده الأخذ مع الحرية الكاملة بالإصلاح العلمى

حقاً إنه لا يمكن أن ينكر أنه عند ما يحدث فى بعض الأحيان خلاف بين العقل والسنة فإنه يجب الأخذ بالأول ، بل إنه زيادة على هذا تجب مراعاة حالة الأمة والظروف، فيقدم ذلك على النص الصريح . أما مماحكات الفقهاء فقد رفضت بشدة من محمد عبده ومدرسته ، ووضع بدلاً من ذلك القديم المتفتت جديد مأخوذ من الاجتهاد فى الأصول موافق للعلاقات الحاضرة . وفى هذا الطريق سارت هذه المدرسة — مثل الوهابية المعتمدة على ابن تيمية — فى رفض الخرافات والبدع ، ولكن فى الوقت نفسه — موافقة فى ذلك للغزالى — حاولت إدخال المبادئ الخلقية والأعمال القلبية فى الفقه ، مع اقتناع عميق بأن بساطة الإسلام الصحيح التى لم يمسها تغيُّر الأيام تجعله قابلاً لكل حركات التقدم والتطور

ومن هنا نرى أن كلتا الحركتين الهندية والمصرية تنتهيان تقريباً عند غاية واحدة ، وهى أن الإسلام عند الرجوع به إلى شكله الأصلى ، وعند الأخذ بروحه ولبه ، وبعد أن ينقى من الأدران التى لصقت به ، ومن جمود العصور المتأخرة ، لا شك أنه يصبح موافقاً لطلبات الحياة العصرية . وإذا ما تأملنا قليلاً ، فإننا نجد أن الطريق الذى يمكن أن يسلكه الإصلاح الدينى من الحركتين سواء .

إلى هنا يقف الأستاذ هرتمان فى تاريخه للحركة الإصلاحية فى مصر والحكم عليها ولم يتناول بعد الحركة التى تلتها وشخصيتها القوية الجبارة وأسلوبها الحاسم الدقيق . وهو ما سنتناوله تذييلاً وتعليقاً على هذه الرسالة آخر الأمر .

على حسن عبد القادر

(١) المنار ج ١٣ ص ٣٩ ، ٤١ و ج ١٤ ص ٨٧١ و ج ١٢ ص ٢٣٩ و ج ٩ ص ٦٧٤